الدلالةُ في المفسّـَر دلالة معنى وفي التفسير دلالة لفظٍ على معنى وكان من المركوزِ في الطباعِ والراسخِ في غرائِزِ العقولِ أنه متى أُريدَ الدلالةُ على معنى فترك أنْ يُصرّـَح به ويُذكر باللفظ الذي هو له في اللغة وعُمِد إلى معنًى آخر فأشيرَ به إليه وجُعِلَ دَليلاً عليه كان للكلام بذلك حسْنٌ ومزيّـَة لا يكونان إذا لم يُصنَعْ ذلك وذُكِرَ بلفظه صريحاً . ولا يكونُ هذا الذي ذكرتُ أنه سببُ فضلِ المفسّـَر على التفسير من كونِ الدلالة في المفسّـَر دلالةَ معنًى على معنًى وفي التفسير معنًى معلوم يعرفه السامع وهو غيرُ معنى لفظ التفسير في نفسِه وحقيقتِه كما ترى من أنّـَ الذي هو معنى اللفظ في قولهم : هو كثيرُ رماد القدر . غير الذي هو معنى اللفظ في قولهم : هو كثيرُ القِرى ولو لم يكن كذلك لم يُتصوّـَر أن يكون هاهُنا دلالة معنى على معنى .

وإِذ قد عرفتَ هذه الجملة فقد حصلَ لنا منها أن المفسّـَر يكون له دلالتان : دلالةُ اللفظ على المعنى ودلالةُ المعنى الذي دلّـَ اللفظُ عليه على معنى لفظٍ آخر . ولا يكون للتفسير إلا دلالةٌ واحدةٌ وهي دلالة اللفظ . وهذا الفرقُ هو سببُ أنْ كان للمفسّـَر الفضلُ والمزية على التفسير . ومحالٌ أن يكونَ هذا قضيةَ المفسّـَر في ألفاظِ اللغة . ذاكَ لأنّـَ معنى المفسّـَر يكونُ مجهولاً عند السامع ومحالٌ أن يكون للمجهول دلالة . ثم إنّـَ معنى المفسّـَر يكون هو معنى التفسير بعينه ومحالٌ إذا كان المعنى واحداً أن يكون للمفسّـَر فضلٌ على التفسير لأن الفضل كان في مسألتنا بأنْ دلّـَ لفظ المفسر على معنى ثم دلّـَ معناه على معنى آخرَ . وذلك لا يكونُ مع كونِ المعنى واحداً ولا يتصوّـَر .

بيانُ هذا أنه محالٌ أن يقالَ إنّـَ معنى الشرجب الذي هو المفسّـِر يكون دليلاً على معنى تفسيره الذي هو الطويلُ على وِزان قولنا : إن معنى " كثيرُ رمادِ القدرُ " يدلّـُ على معنى تفسيرِه الذي هو " كثيرُ القِرى " لأَمرين : .

أحدهما : أنك لا تفسّـِر الشرجبَ حتى يكونَ معناهُ مجهولاً عند السامعِ ومحالٌ أن يكون للمجهول دلالةٌ .

والثاني : أن المعنى في تفسيرنا الشرجَب بالطويل ِ أن نُعلِمَ السامعَ أن معناه هو معنى الطويل بعينه . وإِذا كان كذلك كان محالاً أن يقال : إن معناه يدلّـُ على معنى الطويل والذي يُعْقَل أن يقالَ إن معناه هو معنى الطويل . فاعرفْ ذلك وانظرْ إلى لعبِ الغَفْلَةِ بالقوم . وإلى ما رأَوا في منامِهم من الأحلام الكاذبةِ . ولو أنهم تركوا الاسْتنامة إلى التقليدِ والأخذ